تاريخ وتخطيط قصر الاخيضر

قصر الاخيضر من القصور التي نسبت الى العصر العباسي الاول. ويقع هذا القصر في الصحراء قرب وادي الآبيض حوالي ١٢٠ كم جنوب غرب بغداد ويمكن الوصول اليه من كربلاء التي يبعد عنها حوالي ٥٠ كم باتجاه الجنوب الغربي.

وتأريخ هذا البناء ما زال معلقاً لانه خلل من جميع الكتابات التي تؤرخ له كما ان المصادر التاريخية التي تتحدث عنه لم تشر الى تاريخ بنائه ولذلك اختلف المؤرخون في تحديد زمن بنائه فمنهم من نسبه الى اللخميين في النصف الاول من القرن السادس الميلادي ومنهم من نسبه الى الساسانيين في الربع الاخير من القرن السادس الميلادي وهناك من نسبه الى احد امراء كندة في النصف الاول من القرن السابع الميلادي. اما من نسبه الى العصر الاسلامي فقد اختلفوا في تعيين الفترة الزمنية التي يعود اليها القصر. فهناك من يرى انه يرجع الى العصر الاموي ومنهم من اشار انه يعود الى العصر العباسي وارجح الاراء في الوقت الحاضر ان هذا البناء يعود الى النصف الثاني من القرن الثاني الهجري (٨ م) وانه بني ليكون دار امارة كما يظهر ذلك من تخطيطه الذي يشير الى مرافق سكن وادارة ودواوين اشبه ما يكون بتخطيط دار امارة الكوفة.

وقد اثبتت الصور الجوية ان القصر محاط بمنطقة سكنية واسعة كشفت عن بعضها بعثة المانية عام ١٩٧٤ ٨٣ وعثرت على مسجد وبقايا محراب كما كشفت دائرة الاثار مجموعة من بيوت السكن امام القصر ويرى الاثاريون انه لابد من اجراء المزيد من الحفائر في هذه المنطقة للبت في تاريخ القصر على الوجه الدقيق.

ويحيط ببناية القصر وسوره الداخلي سور من اللبن اضلاعه متفاوتة في اطوالها وذات ابراج نصف اسطوانية وهو مهدم اثاره ظاهرة على الارض. اما السور الداخلي فهو مستطيل الشكل مدعم بابراج، في وسط كل ضلع من اضلاعه باب. وتقع بناية القصر داخل السور باتجاه الضلع الشمالي الذي تتصل به وتحيطه جدران ضخمة من الشرق والغرب والجنوب محصنة بابراج نصف اسطوانية. اما الباب الرئيس لهذا القصر فيقع في الضلع الشمالي من السور الداخلي.

بني هذا القصر بالحجارة والجص اضافة الى قليل من الاجر وجذوع الاشجار التي استعين بها للتقوية بين طبقات البناء والتي لا تزال اثارها باقية في الجدران على الرغم من تلفها بسبب العوامل الطبيعية او باقتلاع البدو بعضها لاستخدامها وقوداً.

وهناك بناء من طابق واحد في الجهة الشرقية بين القصر والسور الداخلي اضيف بعد الانتهاء من بناء القصر. وهناك ملحق اخر للقصر خارج اسواره الرئيسة في الجهة الشمالية الغربية (الاشكال ٤٦ و٤٧). وفيما يلي تفصيل اقسام القصر الرئيسة.

١ ٠ الاســـوار :

يحيط بالقصر وسوره الداخلي سور من اللبن اضلاعه مختلفة الاطوال ذو ابراج نصف اسطوانية وقد تهدم معظمه.

اما السور الداخلي فمبني بالحجر وابعاده ١٧٥ × ١٦٩م وارتفاعه حوالي ١٨م وسمكه حوالي ٤٫٥م في كل ركن من اركانه الاربعة برجاً اسطوانياً كبيراً قطره حوالي ٥م. وباستثناء الابراج التي على جانبي ابواب هذا السور هناك عشرة ابراج في كل ضلع من اضلاعه الاربعة وبين هذه الابراج عقود نصف دائرية بارزة عن الجدار، عقدان بين كل برجين. تخترق هذه العقود من الخلف فتحات (مزاغل افقية) عرضها ١٧ سم لرمي السوائل القاتلة على المهاجمين وقت الحرب. اما الواجهة الداخلية لهذا السور فمزينة باقواس متشابهة إلا انها غير متناظرة مع الاقواس الخارجية. والسور كله صلد حتى قمة الاقواس ثم مجوف بعدها على شكل ممر عرضه حوالي المترين وارتفاعه حتى القبو الذي كان يغطيه حوالي الخمسة امتار ويدور حول القصر من جميع الجهات (شكل ٤٨) وفي الجدار المطل على الخارج من هذا الممر حنايا بيضوية الشكل كل حنية خامسة فيها باب يؤدي الى غرفة صغيرة داخل كل برج من ابراج السور (شكل ٤٩) اما الحنايا الاربع الباقية ففي كل منها مزغل شكله الخارجي يشبه السهم ومثل هذه المزاغل موزعة في الغرف الصغيرة المبنية في الابراج. اما الجدار الداخلي لهذا الممر ففيه فتحات ذات عقود للاضاءة. والراجح ان ارتفاع الابراج بنفس ارتفاع الجدران باستثناء ابراج الاركان التي كانت اكثر ارتفاعاً على الاغلب.

والجدار الشمالي للسور وصلنا بحالة احسن حفظاً من باقي الجدران يزين الجزء العلوي منه حنايا صغيرة ذات عقود على هيئة حدوة الفرس تستند الى اعمدة صغيرة يرجح انها كانت تدور حول القسم العلوي من السور من جميع الجهات.

وفي كل زاوية من زوايا السور من الداخل درج يؤدي الى الممر العلوي من السور وكل درج مغطى باقبية ترتفع بشكل مدرج. والملاحظ ان الاقبية الطويلة المائلة غير موجودة في بناء هذا القصر.

وفتحت في وسط الجدران الاربعة للسور الداخلي مداخل متشابهة عدا المدخل الشمالي الذي يتصل بالبناء الرئيس للقصر اما المداخل الاخرى فكلها تؤدي الى الساحة المكشوفة والمحيطة بالقصر من جهاته الثلاث: الشرقية والغربية والجنوبية ومزودة ببعض التحصينات الدفاعية كالابواب المنزلقة والمزاغل الافقية وغيرها.

الرحبة العظمى (ساحة الشرف) :

وهي ساحة مكشوفة مستطيلة الشكل جدرانها الداخلية مزينة بحنايا ذات عقود مدببة ترتكز عقودها على دعامات مندمجة سبع حنايا في كل من الواجهتين الشمالية والجنوبية وتسع في كل من الواجهتين الشرقية والغربية والدعامات والجدران كلها مبنية بالحجر أما تيجان الدعامات والقسم العلوي من هذه الحنايا فقد بنت بالآجر وفتحت فيها نوافذ ضيقة لانارة الدهليز الاعظم المحيط بالمنطقة المركزية من القصر. وتزين الفراغات بين بعض العقود زخارف حصيرية ناتجة عن التفنن في اختلاف وضع قوالب الآجر وهو ابتكار عربي جسّد نضوجه وابداعه في منارة الجامع الكبير في الموصل، وفي ابنية اخرى كثيرة. اما الواجهة الجنوبية من هذه الرحبة فتتميز برشاقة دعائمها وارتفاع عقودها المدببة وقلة عمق حناياها ويتوسطها إيوان ذو واجهة ترتفع عن مستوى الجدار في كل من جهتيه وهذه اول ظاهرة عمارية عرفت في العمارة الاسلامية باسم «بشتاك».

قاعة العرش وملحقاتها :

يكون الايوان الكبير وملحقاته في الواجهة الجنوبية للرحبة العظمى قاعة العرش هذا القصر (شكل ٥٥) فالايوان مستطيل الشكل يغطيه قبو من الاجر تتصل به غرف عديدة اثنتان منها على كل من جانبيه سقفها قبو منخفض عن قبو الايوان. وفي الجهة الجنوبية من الايوان باب آخر يؤدي الى قاعات اخرى [illegible] حقة بهذا الجزء من القصر. والظاهر ان غرفتي الجهة الغربية من الايوان تفوق بقية [illegible] القصر اهمية لجمال ابنيتها وزخارفها الجصية الرائعة. والزخارف هذه عباره عن مربعات ودوائر وزهرات وزخارف تشبه اسنان المنشار وحنايا مزدوجة في كل منها زخرفة السهم.

البيوت الاربعة :

بنيت بين الاضلاع الطويلة للدهليز الكبير وجدران القصر اربعة بيوت مستقلة ويؤدي الى كل منها باب واحد من هذا الدهليز ما عدا البيت الجنوبي الشرقي الذي فيه بابان يؤدي الى خارج القصر داخل السور الداخلي. وكل بيتين متقابلين من هذه البيوت متشابهان.

يتكون كل من البيت الشمالي الشرقي والبيت الشمالي الغربي من صحن مربع الشكل تقريباً على كل من جهتيه الشمالية والجنوبية مجموعة من الغرف تتكون من ايوان اوسط

[illegible] غرف

يسمى ساحة الشرف وقاعة العرش وملحقاتها بحيث يكون من هاتين الوحدتين مجموعة منفصلة تماماً عن بقية اجزاء القصر. وهذا الدهليز مغطى بقبو نصف اسطواني مسبب قليلاً ومبنى بالواح من الحجر مصفوفة على شكل حلقات عمودية مائلة الى جهة واحدة. والضياء يغمر هذا الدهليز من خلال اربع فتحات في القبو اضافة الى فتحات اخرى من ساحة الشرف ومن بعض البيوت المحيطة به.

المسجد :

وفي القسم الغربي من الدهليز الذي يفصل القصر عن الجدار الشمالي للسور الداخلي بابان شكل كل منهما بسيط من الخارج وعلى شكل قوس ذي سبعة فصوص من الداخل (شكل ٥٢) ويؤديان الى مسجد القصر الذي يتكون من صحن مكشوف تحيطه اروقة من الجهات الجنوبية والشرقية والغربية. واكبر هذه الاروقة الرواق الجنوبي الذي ينفتح على الصحن بخمسة عقود تمتد بين الجدارين الشرقي والغربي. اما الرواقان الجانبيان فينفتح كل منهما على الصحن بثلاثة عقود وكلها تتصل بالجدران بواسطة روابط خشبية لا تزال اثارها ظاهرة.

ويغطى الاروقة الجانبية قبو بسيط خال من الزخرفة اما الرواق الجنوبي ففي قبوه زخارف جصية جميلة اذ قسم هذا القبو الى عشرة اقسام بواسطة اشرطة مزينة باشكال معينات غائرة في وسط كل منها ثلاث دوائر صغيرة ذات مركز واحد. والقبو المحصور بين كل شريطين مزخرف باشكال مربعة (شكل ٥٣). وفي محل التقاء هذا القبو بكل من الجدارين الشرقي والغربي شبه قبة ذات قنوات قائمة على حنايا مضلعة صغيرة مخروطة الشكل تعتبر اول اشكال الحنايا الركنية في العمارة العربية الاسلامية (شكل ٥٤).

وفي منتصف الضلع الجنوبي تقريباً محراب مجوف مغطى بجنية عليها بقايا جصية لا تدل على وجود زخارف سابقة.

المضيف :

في القسم الشرقي من الدهليز الذي يفصل القصر عن السور الداخلي الشمالي يوجد باب يؤدي الى دار كبيرة نسبياً اطلق عليها اسم المضيف وتتكون من صحن وغرف من ثلاثة طوابق.

المدخل الرئيسي :

يقع هذا المدخل في الجهة الشمالية من السور وعلى كل من جانبيه برج مستطيل الشكل ينفتح بابه على ممر مغطى بقبو على شكل سبعة عقود يتخلله فتحات تستعمل كمزاغل لرمي السوائل على المهاجمين وعلى كل من جانبي هذا الممر غرف مظلمة. وفي بداية هذا الممر فراغ في الجدار يمتد من الاعلى الى الاسفل على الجانبين يؤشر مكان جانبي الباب المنزلق الذي يغلق هذا المدخل ويحميه من حصانته كما نجد قبل نهاية هذا الممر حفرة على كل من جانبيه لعلها بقايا المزلاق الذي كان يوضع خلف الباب. ويؤدي هذا الممر الى ساحة مستطيلة حول سقفها بواسطة قوس منبطح الى مربع اقيم فوقه قبة مضلعة من الداخل وعلى يمين ويسار الساحة المستطيلة دهليز يفصل بناية القصر عن السور الداخلي. ويؤدي القسم الايمن من هذا الدهليز مسجد القصر اما القسم الايسر فيؤدي الى ما يسمى بالمضيف. اما جنوبي هذه الساحة فيؤدي الى القاعة الكبرى (البهو الكبير).

البهو الكبير (القاعة الكبرى) :

وهو اكبر قاعات القصر طوله حوالي ١٦م وعرضه ٧م وارتفاعه بارتفاع طابقي البناء وعلى كل من جانبيه خمسة تجويفات ذات عقود مدببة قليلاً في التجويفة الشمالية الشرقية منها سلم يؤدي الى الطابق العلوي كما يوجد درج في التجويفة الجنوبية الغربية يؤدي الى نفس الطابق (شكل ٥٠ و٥١) وهناك باب في هذه التجويفة يؤدي الى مسجد القصر. اما بقية التجويفات ففي بعضها مداخل تؤدي الى غرف مظلمة.

وقبو البهو يبدأ ببروز بسيط يحدد بدايته حيث تبدأ عدة صفوف من الحجر ترتفع عمودياً حوالي ٨٠ سم ثم تأتي بعد ذلك صفوف من الطابوق بوضعية افقية يعقبها حلقات اخرى من الطابوق صفت بصورة عمودية ويبلغ الارتفاع الكلي لهذا القبو حوالي ١٠م. ومدخل البهو يقع في جداره الشمالي تعلوه ثلاث نوافذ والجدار الجنوبي لهذا البهو مشابه لجداره الشمالي مع بعض الاختلاف وفيه باب يؤدي الى الدهليز الكبير حيث يسقف هذا المكان قبة ذات قنوات تشبه القبة الاولى التي في شمال البهو.

الدهليز الكبير :

وعلى يمين ويسار الخارج من القاعة الكبرى دهليز كبير عريض مسقف بحيط عيا

ومن العناصر ذات الاهمية البالغة التي نجدها في هذا القصر هي الحنايا الركنية التي نجدها على جانبي قبو بيت الصلاة في المسجد والتي تطورت بعد ذلك وصار لها دور كبير في بناء القباب لتحويل القاعدة المربعة التي تقام عليها الى شكل اقرب الى الدائرة ليلائم القبة ورقبتها.

ولم يخل هذا القصر من الزخارف التي تفذها الفنان على جدرانه المختلفة بطريقة التفنن باوضاع الاجر ليخرج بزخارف حصيرية جميلة تعتبر اقدم نموذج قائم من نوعها في العمارة الاسلامية كما نفذ الفنان زخارفه على الجص باشكال متعددة من بينها استعمال العناصر العمارية بصيغة زخرفية.

الملحق الداخلي (دار الامير) :

يقع هذا الملحق في الساحة الداخلية الشرقية بين بناية القصر وسوره الداخلي ولا يتصل بجدرانه، إلا ان واجهته الشمالية تمتد شرقاً وغرباً بحيث تلامس السور الداخلي من جهة وجدار القصر من جهة اخرى.

وتخطيط هذه الزيادة يشبه الى حد كبير تخطيط قاعة العرش المطلة على الرحبة العظمى (ساحة الشرف) وواجهتها الشمالية مزينة باشكال مثمنة وبصفين من الحنايا الصماء. وسطح هذا الملحق مستو على الرغم من ان سقوف جميع الغرف فيه مقببة باقبية نصف اسطوانية (شكل ٦١).

الملحق الشمالي الغربي :

يقع هذا الملحق خارج سور القصر الى يمين الداخل من مدخله الشمالي ويتكون من صحن كبير الى شرقيه ستة غرف مسقفة باقبية نصف اسطوانية، والى غربيه جدار على امتداد الجدار الغربي لسور القصر ومدعم باربعة ابراج الشمالي منها مجوف داخله درج حلزوني يؤدي الى قمة البرج. والى شمالي الغرف السابقة ثماني غرف اخرى متصله بها ومتوازية لكل منها باب مفتوح الى الجهة الشرقية واخر الى الجهة الغربية اضافة الى شباك فوق كل من ابواب الجهة الغربية. ولعل هذا الملحق كان مخصصاً للحرس زيادة في تحصين مدخل القصر (شكل ٤٧).

وبعد هذه النظرة على تخطيط القصر ومرافقه المختلفة نعود فنبرز بعض العناصر المعمارية والزخرفية فيه.

واهم العناصر المعمارية التي استخدم العقد المدبب الذي يدعى بالقوس العربي والذي اعتمده البناء سواء في بنائه بعمود المداخل والحنايا ام في بنائه للاقبية المختلفة التي غطى بها سقوفه كما عالج المعمار تقاطع الاقبية في الاركان بطريقة تدل على براعة واتقان كبيرين.

ومن العناصر التي اعتمدت بكثرة في هذا القصر المزاغل الصمودية وعددها ٢٢٨ والمزاغل الافقية وعددها ١٨٨ اضافة الى استخدام الابواب المنزلقة والمزلاج وهي ما تتلائم والتحصينات الدفاعية التي نفذت فيه كما نفذت فيه كثير من الحنايا الصماء سواء أكان ذلك في السور الخارجي ام في الغرف والقاعات وزين بعضها بزخرفة السهام.

ومن الظواهر المعمارية المهمة في هذا القصر ظاهرة (البشتاك) التي تعتبر اقدم ظاهرة من نوعها في العمارة العربية الاسلامية.

وغرفتان جانبيتان وامامهما رواق وخلفها غرفة مستطيلة قد تكون مطبخا لوجود انابيب فخارية عثر عليها استخدمت كمداخن على الاغلب (شكل ٥٦ و٥٧).

والراجح ان الايوان الاوسط في كل من هاتين المجموعتين استخدم للاستقبال والغرفتان الجانبيتان للسكن ومجموعة غرف الجهة الشمالية للسكن شتاء اما مجموعة غرف الجهة الجنوبية فللسكن الصيفي. وبين اقبية هذه الغرف والايوانين في كلا المجموعتين فراغات مسقوفة على طول القبو ومفتوحة عند الواجهة على شكل نافذة جميلة لتخفيف ثقل البناء على الجدران والاقتصاد في المواد البنائية اضافة الى كونها عازلاً حرارياً يساعد على ثبات درجة الحرارة داخل الغرف.

اما البيت الواقع في كل من الجهتين الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية فيختلف عن البيتين السابقين في انه يتكون من ثلاث غرف على كل من جهتي الصحن وخالية من الرواق الذي يتقدمها (شكل ٥٨) وبذلك اصبحت اوسع مساحة من غرف البيتين الشماليين كما ان الغرفة التي تقع خلفها تحتوي على اربع حنايا صماء.

اما الزخارف الحصية التي كانت تزين هذه البيوت فقد اندثرت ولم يبق منها غير جزء صغير كان موجوداً في احدى غرف البيت الشمالي الشرقي.

والظاهر ان تصميم هذه البيوت قد اثر في بيوت مصر الاسلامية في عهد احمد بن طولون اذ كشفت اطلال الفسطاط عن بقايا بيوت طولونية كان تصميمها لا يخرج في اساسه عن التصميمين المشار اليهما في هذا القصر (شكل ٥٩).

الحمام :

تم الكشف عن وجود حمام كبير في الطرف الجنوبي الشرقي لسور القصر وهو مربع الشكل تقريباً وله باب مستطيل يفتح على الدهليز الكبير وله جدران خاصة مبنية بالاجر والنورة ويتكون من اربع غرف وحوضين للماء وموقد (شكل ٦٠).

ملحقات القصر :

لهذا القصر ملحقان اولهما داخل سور القصر في الساحة الداخلية الشرقية ويطلق عليه احياناً اسم (دار الامير) وثانيهما يقع قرب الزاوية الشمالية الغربية من القصر خارج سوره الرئيس ويبعد عنه حوالي ٧٣ م.